فتح القسطنطينية في عهد السلطان محمد الفاتح ١٤٥٣م

عمـــــــاد البحراني

عضو هيئة التحرير

كاتب وباحث- سلطنة عمان

imad-80@hotmail.com

لتفتحن القسطنطينية
فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش

The Conquest of Constantinople During the Era of Sultan Mohammed El-Fateh

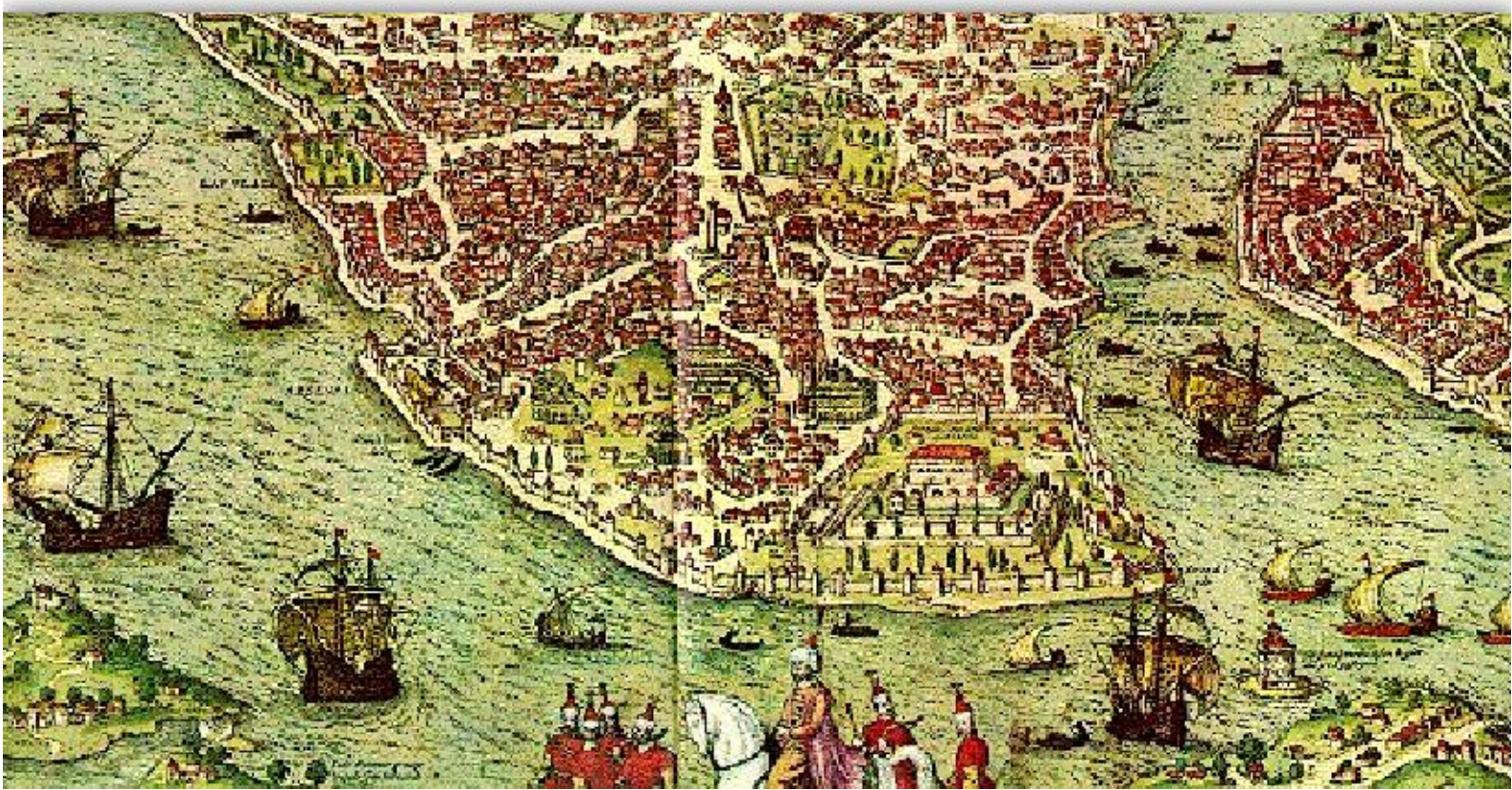

لقد انتظر المسلمون أكثر من ثمانية قرون حتى تحققت البشارة النبوية بفتح مدينة القسطنطينية ، حيث قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : " لتفتحن القسطنطينية ، فلنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش ".

وقد حاصر المسلمين القسطنطينية إحدى عشرة مرة قبل المرة الأخيرة التي تم فيها فتحها ، منها سبعة في القرنين الأولين للإسلام. لكن المدينة المحصنة ظلت صامدة أمام هذه المحاولات المتعددة التي قام بها المسلمون. ثم تجدد الأمل في فتح القسطنطينية في مطلع عهود العثمانيين ،فحاصرها كل من السلطان بايزيد الأول ومراد الثاني ، ولكن لم تكلل جهودهما بالنجاح ، حتى شاء الله أن يكون السلطان محمد الثاني فاتح المدينة العتيدة ، وبحظى بشرف تحقيق بشارة المصطفى ﷺ

وقد ارتأيت أن يكون موضوع بحثي عن فتح القسطنطينية وذلك بسبب أهمية هذا الحدث التاريخي والذي يعتبر أهم أحداث القرن ١٥ م ،كما يعتبره معظم المؤرخون نهاية للعصور الوسطى وبداية للعصر الحديث في أوروبا بالإضافة إلى أنه أدى إلى سقوط إمبراطورية عريقة استمرت لعدة قرون وهي "الإمبراطورية البيزنطية".

ويتضمن البحث النقاط التالية :

١. نبذة عن مدينة القسطنطينية .
٢. محاولات المسلمين فتح القسطنطينية قبل عام ١٤٥٣م.
٣. مقدمات فتح القسطنطينية .
٤. محمد الفاتح والتجهيز للفتح.
٥. حصار القسطنطينية .
٦. مجريات الحرب وفتح المدينة.
٧. نتائج فتح القسطنطينية.

نبذة عن مدينة القسطنطينية

أسس مدينة القسطنطينية الإمبراطور الروماني قسطنطين الأكبر وهو الذي اختارها لتكون عاصمة للدولة الرومانية وليصعب الدنو منها كما يسهل الدفاع عنها. وقد عاشت القسطنطينية عاصمة للدولة البيزنطية حوالي ألف عام كانت فيه مركزا للثقافة ورمزا للحضارة فقد امتلأت القسطنطينية بالميادين الواسعة وبواباتها وكنائسها وملاعبها وحماماتها وحصونها المنيعة ومعاقلها المشيدة وطالما وقفت عقبة دون الغازين من مختلف أجناس الأرض.

بلغ عدد سكان هذه المدينة المسيحية المليون واجتمع فيها الإغريق أهل البلاد الأصليين والأسيويين والروس والبلغار والأوروبيين الصقالبة والتجار منم مسلمين ومسيحيين ومن مختلف أنحاء أوروبا كلها.[١]

محاولات المسلمين فتح القسطنطينية

بدأت المحاولات الجادة في عهد معاوية بن أبي سفيان وبلغ من إصراره على فتح القسطنطينية أن بعث بحملتين الأولى سنة ٤٩ هـ ٦٦٦ م ، والأخرى كانت طلائعها في سنة ٥٤ هـ = ٦٧٣م ، وظلت سبع سنوات وهي تقوم بعمليات حربية ضد أساطيل الروم في مياه القسطنطينية ، لكنها لم تتمكن من فتح المدينة العتيدة ، وكان صمود المدينة يزيد المسلمين رغبة وتصميما في معاودة الفتح ؛ فنهض "سليمان بن عبد الملك" بحملة جديدة سنة (٩٩ هـ = ٧١٩م) ادخر لها زهرة جنده وخيرة فرسانه ، وزودهم بأمضى الأسلحة وأشدها فتكا لكن المدينة بقيت منيعة امام المسلمين ، وفي عهد مسلمة بن عبدالملك عاجم المسلمون القسطنطينية فلجأ الامبراطولر البيزنطي ليو الثالث الى عقد حلف مع البلغار فهزم المسلمين برا وبحرا.

وقد توقفت الحملات بعد موت مسلمة بن عبد الملك حيث ظهرت الخلافات في الدولة الأموية وشغل المسلمون بشؤونهم الداخلية ثم انصرف المسلمون بعد قيام الدولة العباسية عن محاولاتهم في الحرب ضد البيزنطيين الى حين ثم ظهر الأتراك العثمانيين وحاصر العثمانيون في عهد بايزيد الأول القسطنطينية ثم اضطر بايزيد لدفع الحصار عنها حين ظهر الخطر المغولي ثم جاء مراد الثاني فحاصرها ولم يتمكن من النيل منها لضعف الاسطول العثماني كقوة مهاجمة فتركها حتى جاء الفتح على يد السلطان محمد الثاني سنة ١٤٥٣م.[٢]

مقدمات فتح القسطنطينية

أدرك السلطان محمد الفاتح أن وجود دويلة تجارية يونانية على شكل جيب في داخل الامبراطورية العثمانية أمر لا يتمشى مع حقائق العصر فوجودها حتى وان كان أقل مما كان عليه في السابق ، يعرقل المواصلات وعمليات نقل القوات ، ومن ناحية أخرى فان الاستيلاء على عاصمة الامبراطورية الرومانية القديمة ومن ثم تحويل الدولة العثمانية الى امبراطورية ذات توجه عالمي كان حلما يراود الباب العالي منذ زمن بايزيد الأول.[٣]

محمد الفاتح

أراد السلطان محمد الفاتح أن يحصن مضيق البوسفور حتى لا يأتي لها مدد من مملكة طرابزون وذلك بأن يقيم قلعة على شاطئ المضيق من جهة أوروبا تكون مقابلة للحصن الذي أنشأه السلطان بايزيد الأول على ضفة البوسفور الآسيوية في أثناء حصاره للقسطنطينية حصنا تجاه أسوارها عُرف باسم قلعة الأناضول ، وكانت تقوم على أضيق نقطة من مضيق البوسفور ، وقد جلب السلطان محمد الفاتح لهذه القلعة مواد البناء وآلاف العمال ، واشترك هو بنفسه مع رجال دولته في أعمال البناء ، وهو ما ألهب القلوب وأشعل الحمية في النفوس ، وبدأ البناء في الارتفاع شامخ الرأس في الوقت الذي كان فيه الإمبراطور قسطنطين لا يملك وقف هذا البناء ، واكتفى بالنظر حزنا وهو يرى أن الخطر الداهم سيحدق به دون أن يملك مندفعه شيئا.

ولم تمض ثلاثة شهور حتى تم بناء القلعة على هيئة مثلث سميك الجدران ، في كل زاوية منها برج ضخم مغطى بالرصاص ، وأمر السلطان بأن ينصب على الشاطئ مجانيق ومدافع ضخمة ، وأن تصوب أفواهها إلى الشاطئ ، لكي تمنع السفن الرومية والأوروبية من المرور في بوغاز البوسفور ، وقد عرفت هذه القلعة باسم "روميلي حصار" ، أي قلعة الروم.توسل الإمبراطور قسطنطين إلى محمد الفاتح بالعدول عن إتمام القلعة التي تشكل خطرًا عليه ، لكنه أبي ومضى في بنائه ، وبدأ البيزنطيون يحاولون هدم القلعة والإغارة على عمال البناء ، وتطورت الأحداث في مناوشات ، ثم لم يلبث أن أعلن السلطان العثماني الحرب رسميا على الدولة البيزنطية ، وما كان من الإمبراطور الرومي إلا أن أغلق أبواب مدينته الحصينة ، واعتقل جميع العثمانيين الموجودين داخل المدينة ، وبعث إلى السلطان محمد رسالة يخبره أنه سيدافع عن المدينة لآخر قطرة من دمه.

وأخذ الفريقان يتأهب كل منهما للقاء المرتقب في أثناء ذلك بدأ الإمبراطور قسطنطين في تحصين المدينة وإصلاح أسوارها المتهدمة وإعداد وسائل الدفاع الممكنة ، وتجميع المؤن والغلال ، وبدأت تردد على المدينة بعض النجدات خففت من روح الفزع التي سيطرت على الأفئدة ، وتسربت بعض السفن تحمل المؤن والغذاء ، فقداستنجد الإمبراطور قسطنطين بأهل جنوة فأرسلوا له عمارة بحرية تحت إمرة جستنياني ، والذي نجح مع ٧٠٠ مقاتل محملين بالمؤن والذخائر في الوصول إلى المدينة المحاصرة ؛ فاستقبله الإمبراطور قسطنطين استقبالا حسنًا وعينه قائدًا عامًا لقواته ، فنظم الجيش وأحسن توزيعهم ودرب الرهبان الذي يجهلون فن الحرب تمامًا ، وقرر الإمبراطور وضع سلسلة لإغلاق القرن الذهبي أمام السفن القادمة ، تبدأ من طرف المدينة الشمالي وتنتهي عند حي غلطة.

استعدادت محمد الفاتح

كان السلطان محمد الثاني يفكر في فتح القسطنطينية ويخطط لما يمكن عمله من أجل تحقيق الهدف والطموح ، وسيطرت فكرة الفتح على عقل السلطان وكل جوارحه ، فلا يتحدث إلا في أمر الفتح ولا يأذن لأحد من جلسائه بالحديث في غير الفتح الذي ملك قلبه وعقله وأرقه وحرمه من النوم الهادئ.

وساقت له الأقدار مهندس مجري يدعى "أوربان" ، عرض على السلطان أن يصنع له مدفعا ضخما يقذف قذائف هائلة تكفي لثلم أسوار القسطنطينية ؛ فرحب به السلطان وأمر بتزويده بكل ما يحتاجه من معدات ، ولم تمض ثلاثة أشهر حتى تمكن أوربان من صنع مدفع عظيم لم يُر مثله قط ، فقد كان يزن ٧٠٠ طن ، ويرمي بقذائف زنة الواحدة منها ١٢ ألف رطل ، ويحتاج جره إلى ١٠٠ ثور يساعدها مائة من الرجال ، وعند تجربته سقطت قذيفته على بعد ميل ، وسمع دويه على بعد ١٣ ميلا ، وقد قطع هذا المدفع الذي سُمي بالمدفع السلطاني الطريق من أدرنة إلى موضعه أمام أسوار القسطنطينية في شهرين.(٤)

حصار القسطنطينية ١٤٥٣م

تحتل القسطنطينية موقعا منيعا ، حبته الطبيعة بأبدع ما تحبو به المدن العظيمة ، تحدها من الشرق مياه البوسفور ، ويحدها من الغرب والجنوب بحر مرمرة ، ويمتد على طول كل منها سور واحد. أما الجانب الغربي فهو الذي يتصل بالقارة الأوروبية ويحميه سوران طولهما أربعة أميال يمتدان من شاطئ بحر مرمرة إلى شاطئ القرن الذهبي ، ويبلغ ارتفاع السور الداخلي منهما نحو أربعين قدمًا ومدعم بأبراج يبلغ ارتفاعها ستين قدما ، وتبلغ المسافة بين كل برج وآخر نحو مائة وثمانين قدما.

أما السور الخارجي فيبلغ ارتفاعه خمسة وعشرين قدما ، ومحصن أيضا بأبراج شبيهة بأبراج السور الأول ، وبين السورين فضاء يبلغ عرضه ما بين خمسين وستين قدما ، وكانت مياه القرن الذهبي الذي يحمي ضلع المدينة الشمالي الشرقي يغلق بسلسلة حديدية هائلة يمتد طرفاها عند مدخله بين سور غلطة وسور القسطنطينية ، ويذكر المؤرخون العثمانيون أن عدد المدافعين عن المدينة المحاصرة بلغ أربعين ألف مقاتل.

وقد وصل السلطان العثماني في جيشه الضخم أمام الأسوار الغربية للقسطنطينية المتصلة بقارة أوروبا يوم الجمعة الموافق (١٢ من رمضان ٨٠٥هـ= ٥ من إبريل ١٤٥٣م) ونصب سرادقه ومركز قيادته أمام باب القديس "رومانويس" ، ونصبت المدافع القوية البعيدة المدى ، ثم اتجه السلطان إلى القبلة وصلى ركعتين وصلى الجيش كله ، وبدأ الحصار الفعلي وتوزيع قواته ، ووضع الفرق الأناضولية وهي أكثر الفرق عددًا عن يمينه إلى ناحية بحر مرمرة ، ووضع الفرق الأوروبية عن يساره حتى القرن الذهبي ، ووضع الحرس السلطاني الذي يضم نخبة الجنود الانكشارية وعددهم نحو ١٥ ألفًا في الوسط.

وتحرك الأسطول العثماني الذي يضم ٣٥٠ سفينة في مدينة جاليبولي قاعدة العثمانيين البحرية في ذلك الوقت ، وعبر بحر مرمرة إلى البوسفور وألقى مراسيه هناك ، وهكذا طوقت القسطنطينية من البر والبحر بقوات كثيفة تبلغ ٢٦٥ ألف مقاتل ، لم يسبق أن طُوقت بمثلها عدة وعتادًا ، وبدأ الحصار الفعلي في الجمعة الموافق (١٣ من رمضان ٨٠٥هـ = ٦ من إبريل ١٤٥٣م) ، وطلب السلطان من الإمبراطور "قسطنطين" أن يسلم المدينة إليه وتعهد باحترام سكانها وتأمينهم على أرواحهم ومعتقداتهم وممتلكاتهم ، ولكن الإمبراطور رفض ؛ معتمدًا على حصون المدينة المنيعة ومساعدة الدول النصرانية له.

مجريات الحرب وفتح المدينة

بعد ما أحسن السلطان ترتيب وضع قواته أمام أسوار القسطنطينية بدأت المدافع العثمانية تطلق قذائفها الهائلة على السور ليل نهار لا تكاد تنقطع ، وكان دوي اصطدام القذائف بالأسوار يملأ قلوب أهل المدينة فزعا ورعبا ، وكان كلما انهدم جزء من الأسوار بادر المدافعون عن المدينة إلى إصلاحه على الفور ، واستمر الحال على هذا الوضع.. هجوم جامح من قبل العثمانيين ، ودفاع مستميت يبديه المدافعون ، وعلى رأسهم جون جستنيان ، والإمبراطور البيزنطي.

وفي الوقت الذي كانت تشتد فيه هجمات العثمانيين من ناحية البر حاولت بعض السفن العثمانية تحطيم السلسلة على مدخل ميناء القرن الذهبي واقتحامه ، ولكن السفن البيزنطية والإيطالية المكلفة بالحراسة والتي تقف خلف السلسلة نجحت في رد هجمات السفن العثمانية ، وصبت عليها قذائفها وأجبرتها على الفرار.

وكانت المدينة المحاصرة تتلقى بعض الإمدادات الخارجية من بلاد المورة وصقلية ، وكان الأسطول العثماني مرابطا في مياه البوسفور الجنوبية منذ (٢٢ من رمضان ٨٠٥هـ = ١٥ من إبريل ١٤٥٣م) ، ووقفت قطعة على هيئة هلال لتحول دون وصول أي مدد ولم يكد يمضي ٥ أيام على الحصار البحري حتى ظهرت ٥ سفن غربية ، أربع منها بعث بها البابا في روما لمساعدة المدينة المحاصرة ، وحاول الأسطول العثماني أن يحول بينها وبين الوصول إلى الميناء واشتبك معها في معركة هائلة ، لكن السفن الخمس تصدت ببراعة للسفن العثمانية وأمطرتها بوابل من السهام والقذائف النارية ، فضلا عن براعة رجالها وخبرتهم التي تفوق العثمانيين في قتال البحر ، الأمر الذي مكنها من أن تشق طريقها وسط السفن العثمانية التي حاولت إغراقها لكن دون جدوى ونجحت في اجتياز السلسلة إلى الداخل.

كان لنجاح السفن في المرور أثره في نفوس أهالي المدينة المحاصرة ؛ فانتعشت آمالهم وغمرتهم موجة من الفرح بما أحرزوه من نصر ، وقويت عزائمهم على الثبات والصمود ، وفي الوقت نفسه أخذ السلطان محمد الثاني يفكِّر في وسيلة لإدخاله القرن الذهبي نفسه وحصار القسطنطينية من أضعف جوانبها وتشتيت قوى المدينة المدافعة.

واهتدى السلطان إلى خطة موفقة اقتضت أن ينقل جزءًا من أسطوله بطريق البر من منطقة غلطة إلى داخل الخليج ؛ متفاديا السلسلة ، ووضع المهندسون الخطة في الحال وبُدئ العمل تحت جنح الظلام وحشدت جماعات غفيرة من العمال في تمهيد الطريق الوعر الذي تتخلله بعض المرتفعات ، وغُطي بألواح من الخشب المطلي بالدهن والشحم ، وفي ليلة واحدة تمكن العثمانيون من نقل سبعين سفينة طُويت أشرعتها تجرها البغال والرجال الأشداء ، وذلك في ليلة (٢٩ من رمضان ٨٠٥هـ = ٢٢ من إبريل ١٤٥٣م).

فقد اعتبر هذا العمل معجزة بمقاييس العصر آنذاك على أن الفكرة نفسها ليست من ابتكار السلطان العثماني وإنما عرفت قديما ولكن السلطان العثماني بقدرته الفائقة على القيادة وتصميمه على بلوغ أهدافه ساعد على النجاح ، فقد دبر الأمر وهكذا صارت المدافع العثمانية بإمكانها أن تضرب أهدافها في داخل المدينة.[٥]

وكانت المدافع العثمانية تواصل قذائفها حتى تشغل البيزنطيين عن عملية نقل السفن ، وما كاد الصبح يسفر حتى نشرت السفن العثمانية قلوعها ودقت الطبول وكانت مفاجأة مروعة لأهل المدينة المحاصرة.

وبعد نقل السفن أمر السلطان محمد بإنشاء جسر ضخم داخل الميناء ، عرضه خمسون قدما ، وطوله مائة ، وصُفَّت عليه المدافع ، وزودت السفن المنقولة بالمقاتلين والسلالم ، وتقدمت إلى أقرب مكان من الأسوار ، وحاول البيزنطيون إحراق السفن العثمانية في الليل ، ولكن العثمانيين علموا بهذه الخطة فأحبطوها ، وتكررت المحاولة وفي كل مرة يكون نصيبها الفشل والإخفاق.

استمر الحصار بطيئا مرهقا والعثمانيون مستمرون في ضرب الأسوار دون هوادة ، وأهل المدينة المحاصرة يعانون نقص المؤن ويتوقعون سقوط مدينتهم بين يوم وآخر ، خاصة وأن العثمانيين لا يفتئون في تكرار محاولاتهم الشجاعة في اقتحام المدينة التي أبدت أروع الأمثلة في الدفاع والثبات ، وكان السلطان العثماني يفاجئ خصمه في كل مرة بخطة جديدة لعله يحمله على الاستسلام أو طلب الصلح ، فقد لجأ العثمانيون إلى استخدام طريقة السراديب كما استخدموا طريقة الحصن المتحرك ولكنهم فشلوا في خططهم هذه جميعا[٦] ولم يعد أمام السلطان سوى معاودة القتال بكل ما يملك من قوة.

وفي فجر يوم الثلاثاء (٢٠ من جمادى الأولى ٨٥٧هـ = ٢٩ من مايو ١٤٥٣م) ، كان السلطان العثماني قد أعد أهبته الأخيرة ، ووزَّع قواته وحشد زهاء ١٠٠ ألف مقاتل أمام الباب الذهبي ، وحشد في الميسرة ٥٠ ألفًا ، ورابط السلطان في القلب مع الجند الإنكشارية ، واحتشدت في الميناء ٧٠ سفينة بدأ الهجوم برًا وبحرًا ، واشتد لهيب المعركة وقذائف المدافع يشق دويها عنان السماء ويثير الفزع في النفوس ، وتكبيرات الجند ترج المكان فيُسمع صداها من أميال بعيدة ، والمدافعون عن المدينة يبذلون كل ما يملكون دفاعا عن المدينة ، وما هي إلا ساعة حتى امتلأ الخندق الكبير الذي يقع أمام السور الخارجي بآلاف القتلى.

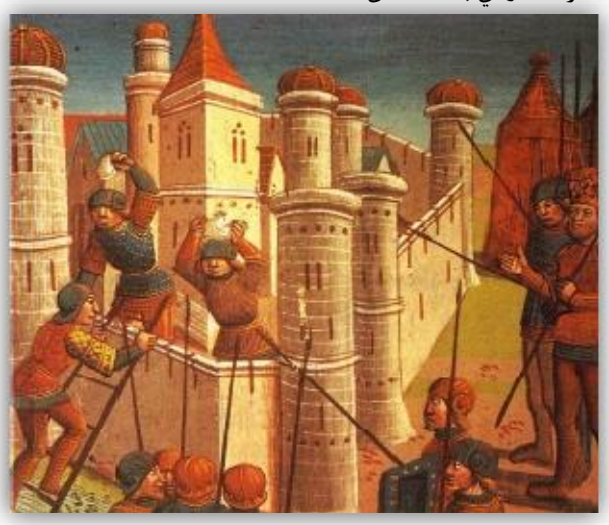

وفي أثناء هذا الهجوم المحموم جرح "جستنيان" في ذراعه وفخذه ، وسالت دماؤه بغزارة فانسحب للعلاج رغم توسلات الإمبراطور له بالبقاء لشجاعته ومهارته الفائقة في الدفاع عن المدينة ، وضاعف العثمانيون جهدهم واندفعوا بسلالمهم نحو الأسوار غير مبالين بالموت الذي يحصدهم حصدا ، حتى وثب جماعة من الانكشارية إلى أعلى السور ، وتبعهم المقاتلون وسهام العدو تنفذ

إليهم ، ولكن ذلك كان دون جدوى ، فقد استطاع العثمانيون أن يتدفقوا نحو المدينة.

ونجح الأسطول العثماني في رفع السلاسل الحديدية التي وُضعت في مدخل الخليج ، وتدفق العثمانيون إلى المدينة التي سادها الذعر ، وفر المدافعون عنها من كل ناحية ، وعندئذ تمكن الجنود الانكشارية من إنزال الأعلام العثمانية كدليل على انتصار العثمانيين على البيزنطيين.(٧)

وهكذا سقطت المدينة في يد العثمانيين وتحقق النصر للمسلمين ودخل السلطان محمد الفاتح المدينة ظافرا ترجل عن فرسه ، وسجدلله شكرا على هذا الظفر والنجاح ، ثم توجه إ لى كنيسة "أيا صوفيا" ؛ حيث احتشد فيها الشعب البيزنطي ورهبانه ، فمنحهم الأمان ، وأمر بتحويل كنيسة "أيا صوفيا" إلى مسجد ، وأمر بإقامة مسجد في موضع قبر الصحابي الجليل "أبي أيوب الأنصاري" ، وكان ضمن صفوف الحملة الأولى لفتح القسطنطينية ، وقد عثر الجنود العثمانيون على قبره فاستبشروا خيرًا بذلك.

وقرر الفاتح الذي لُقِّب بهذا اللقب بعد الفتح اتخاذ القسطنطينية عاصمة لدولته ، وأطلق عليها اسم "إسلام بول" أي "دار الإسلام" ، ثم حُرفت واشتهرت بـ"إستانبول" ، وانتهج سياسة سمحة مع سكان المدينة ، فمنح أهالي حنوة من سكان حي جلاطا شروطا مناسبة للصلح ، وأعطى لكبار رجال الدين المسيحي حرية دينية كاملة ، بل أنه زاد من سلطانهم بان وكل إليهم أمر القضاء المدني والفصل في القضايا الخاصة بالأحوال الشخصية للمسحيين من رعايا كنيستهم ، وأمر بانتخاب بطريرك لهم ، وسمح كذلك بعودة اليونانيين الذين غادروا المدينة قبل سقوطها ، كما تدفق إليها العديد المسلمين من مختلف أنحاء آسيا الصغرى ، وسرعان ما تحولت استانبول لتصبح المركز الفكري الأول في العالم الإسلامي.(٨)

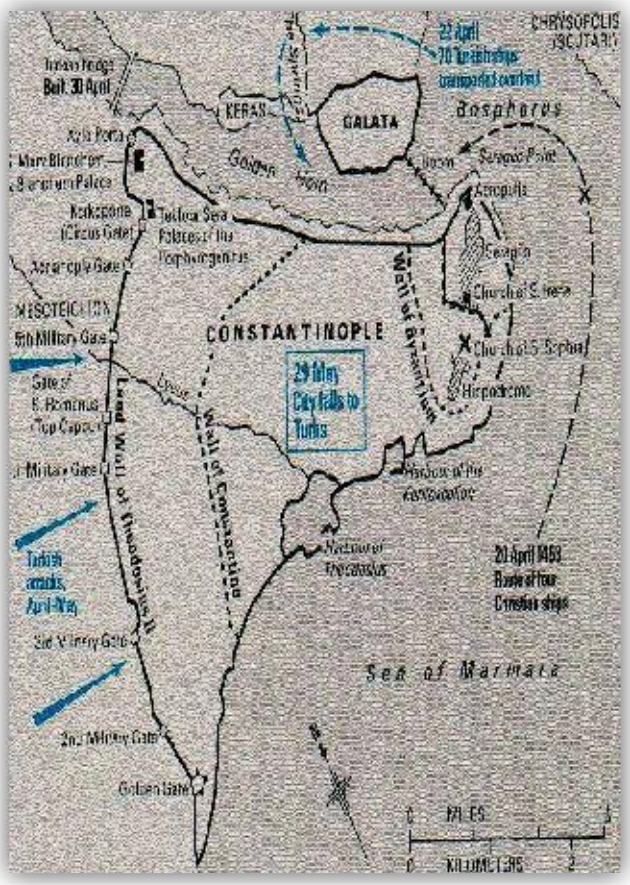

نتائج فتح القسطنطينية

لم يكن فتح القسطنطينية أمراً سهلاً كما يحلو لبعض المؤرخين أن يصوروه بسبب ضعف الدولة البيزنطية ، والانشقاق الكنسي في الشرق والغرب ، بل الحق يقال: إن الجنود الإسلاميين بذلوا أرواحهم رخيصة في سبيل ذلك ، وقاموا بالتضحية والفداء حتى تم لهم النصر المبين ، كما أن السلطان محمداً أعدّ كل ما يمكن من الوسائل العسكرية الناجحة ، ولم يشك لحظة في ثقته بنصر الله عز وجل حتى تم له ذلك .

وصدق المؤرخ الفرنسي الشهير (كارادي فو Ca rra De Vaux) في قوله بهذا الصدد: «إن هذا الفتح لم يتيسر لمحمد الفاتح اتفاقاً ، ولا تيسر بمجرد ضعف الدولة البيزنطية ، بل كان هذا السلطان يدبر التدابير اللازمة له من قبل ويستخدم له ما كان في عصره من العلم»(٩)

وكان من آثار هذا الفتح أن اتحد كلا القسمين الجنوبي والشمالي ، الآسيوي والأوروبي للدولة الإسلامية العثمانية ، وتحولت العاصمة من أدرنة إلى القسطنطينية التي سميت بأسماء عدة: إسلام بول (أي مدينة الإسلام) ، ودار السعادة ، واسمها الرسمي الآستانة ، وفي العهد الكمالي قرر اسمها رسمياً إستانبول ولا تزال.

وأصبحت القسطنطينية بعد ذلك قاعدة للأعمال العسكرية في الشرق والغرب ، وامتد النفوذ الإسلامي إلى شواطئ البحر الأسود الشمالي وكييف (حالياً في روسيا) وإلى المجر واليونان وسواحل البحر الأدرياتيكي الشرقية ، وإلى شرقي البحر الأبيض المتوسط.(١٠)

الخاتمة

تناولنا في بحثنا هذا حادثة فتح القسطنطينية ابتداء من محاولات المسلمين فتح هذه المدينة منذ العصر الأموي حتى تحقق هذا الحلم في العصر العثماني على يد السلطان محمد الثاني ، ثم استعرضنا دوافع السلطان محمد الثاني لفتح هذه المدينة ،مرورا بحصار العثمانيين لها ،ومجريات الحرب بينهم وبين البيزنطيين المدافعين عنها ،وانتهاء بسقوط المدينة بيد العثمانيين ، والنتائج التي ترتبت على هذا الفتح العظيم للمسلمين للعثمانيين وعلى أوروبا والعالم بأسره ، فقد غير هذا الحادث ملامح التاريخ الأوروبي بأسره .

وقد مكننا هذا البحث من التعرف على شخصية تاريخية إسلامية فذة ،وهي شخصية السلطان محمد الفاتح ،وما تميزت به من صفات العظيمة أهلته لأن ينجز هذا العمل التاريخي رغم صغر سنة ، فقد كان حماسه الديني والذي غرسه في نفوس قادته وكبار رجالات الدولة وعامة الشعب الأثر الكبير في تحقيق هذا النصر ، وبواسطته أزيلت كافة الصعاب التي واجهت العثمانيين في حصار المدينة ، كما كان لدهائه وذكائه ومعرفته بكيفية وضع الخطط الحربية في ميدان القتال دور هام في نجاح العثمانيين في اختراق السلسة الحديدية التي وضعها البيزنطيون حول ميناء القرن الذهبي بعد أن اهتدى الفاتح إلى طريقة مكنته من نقل الأسطول العثماني إلى داخل القرن الذهبي ، وقد ساهمت هذه الطريقة بشكل كبير في نجاح عملية الفتح.

كما تميز السلطان محمد الفاتح بقوة العزيمة والإصرار فكان شجاعا مقداما شديد المراس يصبر على المكاره ولا يعرف اليأس طريقا إليه رغم كل العوائق التي واجهها من موقع المدينة الحصين ودفاع

البيزنطيين المستميت عنها ، ولهذه الصفات كلها ولقيامه بهذا العمل الجبار وهو فتح القسطنطينية فنحن نعتبر محمد الفاتح أعظم سلاطين الدولة العثمانية قاطبة ومن أكبر المجاهدين في التاريخ الإسلامي.

ومن يتأمل شخصية السلطان محمد الفاتح وأعماله الخالدة وظروف عصره ويقارنها بعصرنا الحاضر يدرك أن سبب قوة المسلمين في تلك العصور وسبب ضعفهم وهوانهم في وقتنا الراهن هو بلا شك ضعف العامل الديني ، فقد كان للحماس الديني لدى السلطان الفاتح وجنده والرعية والرغبة في إعلاء كلمة الله ونشر الإسلام من خلال الجهاد في سبيله أبلغ الأثر في تحقيق هذا الفتح المبين للإسلام والمسلمين ، وإزالة أعرق إمبراطورية في ذلك العصر من الوجود ، وعلى النقيض تماما نجد أن ضعف الحماس الديني لدى المسلمين اليوم هو السبب الرئيسي لتفككهم وضعفهم وتكالب القوى الكبرى وسيطرتها عليهم.

الهوامش

(١) أ . د . محمود السيد — تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها — مؤسسة شباب الجامعة — القاهرة — ٢٠٠٠م — ص ٣٥ ، ٣٦ .
(٢) المرجع نفسه -ص ٣٩ .
(٣) نيقولا فاتان - تاريخ الدولة العثمانية — ج١-اشراف : روبير مانتران-ترجمة - بشير السباعي — دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع — القاهرة — ط١-١٩٩٣ — ص ٧٦.
(٤) خليل حسن فخر الدين : محمد الفاتح وملحمة القسطنطينية - مقال في مجلة الأمة-الكويت - العدد ٢١-١٤٠٢ هـ
(٥) أ.د. محمود السيد — ص ٥٥.
(٦) المرجع نفسه — ص٥٧ .
(٧) المرجع نفسه — ص ٦١ .
(٨) د. محمد فريد- تاريخ الدولة العلية العثمانية — تحقيق إحسان حقي — دار النفائس — بيروت — ١٩٨٣م ص٦١ ، ٦٧ .
(٩) الأمير شكيب أرسلان- حاضر العالم الإسلامي ج ١ - مصر — ١٣٩٢هـ-ص ٢٢٠
(١٠) خليل حسن فخر الدين — مرجع سبق ذكره .

المراجع

- السيد (أ.د . محمود): تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها — مؤسسة شباب الجامعة — القاهرة — ٢٠٠٠م
- أرسلان (الأمير شكيب) : حاضر العالم الإسلامي ج ١ - مصر — ١٣٩٢هـ
- فاتان (نيقولا) : تاريخ الدولة العثمانية — ج١-اشراف : روبير مانتران-ترجمة : بشير السباعي — دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع — القاهرة — ط١-١٩٩٣ .
- فخرالدين (خليل حسن) : محمد الفاتح وملحمة القسطنطينية -مقال في مجلة الأمة-الكويت -العدد ٢١ - ١٤٠٢ هـ
- فريد (دكتور محمد) : تاريخ الدولة العلية العثمانية — تحقيق إحسان حقي — دار النفائس — بيروت — ١٩٨٣م.

السلطان محمد الفاتح

محمد الفاتح (٨٣٣-٨٨٦ هـ / ١٤٢٩ -١٤٨١م). السلطان محمد بن السلطان مراد الثاني. أشهر سلاطين الدولة العثمانية. خلف والده في السلطة عام ٨٥٥هـ ، ١٤٥١م .تكلم بالفارسية والعربية واليونانية والسلافية ، وناصر العلوم الإسلامية ، وقرب إليه العلماء والأدباء والشعراء وأجزل لهم العطاء. أوصاه والده بفتح القسطنطينية ، فاجتهد ونجح في فتحها عام (٨٥٧هـ ، ١٤٥٣م) ولذا عرف بـ الفاتح لأهمية فتح هذه المدينة ، عاصمة الدولة البيزنطية. وأطلق عليها اسم إسلامبول الذي يعني بالتركية: عاصمة الإسلام. وحول كاتدرائية القديسة أيا صوفيا إلى مسجد.

أدت فتوحاته في أوروبا ، وبخاصة في بلاد البلقان إلى جعل بلاد الصرب ولاية عثمانية سنة ٨٦٤هـ ، ١٤٥٩م. وخضع له إقليم البوسنة سنة (٨٦٩هـ ، ١٤٦٤م) ، ثم إقليم الهرسك سنة ٨٧٢هـ ، ١٤٦٧م. وانضمت إليه طائفة البوجوميل النصرانية عندما دخل البوسنة ، لقرب مبادئهم من مبادئ الإسلام. واحتل دوقية أثينا. ودانت له معظم بلاد المورة سنة ٨٦٥هـ ، ١٤٦٠م. وأقام قلعة حصينة في قلب ألبانيا بعد سقوط كرويا في يده عام ١٤٧٨م.

سيطر على كل المحطات التجارية التابعة لجمهورية جنوة في منطقة البحر الأسود .واعترف تتار القرم بالسيادة العثمانية. وحارب البنادقة ، ووقع معهم اتفاقية سنة٨٨٤ هـ ، ١٤٧٩ م ، تقرر بموجبها أن يدفعوا الجزية للعثمانيين ، وتنازلوا عن عدة جزر ومدن. ووصلت جيوشه إلى شواطئ بحر الأدرياتيك ، ودخل جنوب إيطاليا. وقضى على مملكة طرابيزون النصرانية اليونانية شمالي الأناضول عام ٨٦٦هـ ، ١٤٦١م ، وأسر ملكها ، وقتله سنة ٨٧٥هـ ، ١٤٧٠م. وتوفي بإسلامبول (إسطنبول) ، وهو يعد العدة لفتح روما.

ورد في مسند أحمد بن حنبل في الحديث رقم ١٨١٨٩

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ ، وَسَمِعْتُهُ أَنَا مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ ، قَالَ حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ الْحُبَابِ ، قَالَ حَدَّثَنِي الْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ الْمَعَافِرِيُّ ، قَالَ حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بِشْرٍ الْخَثْعَمِيُّ ، عَنْ أَبِيهِ ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَتُفْتَحَنَّ الْقُسْطَنْطِينِيَّةُ فَلَنِعْمَ الْأَمِيرُ أَمِيرُهَا وَلَنِعْمَ الْجَيْشُ ذَلِكَ الْجَيْشُ.